ملهمات اليوم الخالد

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

من حق مؤسس الحضارة الإسلامية علينا — وقد أظلنا عيد مولده — أن نحييه تحية الوفاء والعرفان بالجميل ، وأن نتخذ من ذكريات عيده موسما لصفو العزائم ، ورياضة النفوس ، والرجوع إلى حظيرة الخير ، والبعد عن أسباب الفتن ، والتعلق بأهداف الخير ، والتمكين لمبادىء المحبة والسلام ، فتلك كلها مثل أحبها النبي العربى محمد بن عبد الله ، وحققها فى حياته ، وسلوكه ووجه إليها فى مأثور سنته ، وتلقى فيها عن ربه كتابا سيظل على الدهر نبراسا يضىء للسارى معالم الطريق .

ولسنا نعلم — فيما درسنا من تاريخ عباقرة الإنسانية — مؤسس دعوة جمع نظامه بين خيرى الدنيا والآخرة ، ووفق بين مطالب الروح والمادة ، وسوى فى الكرامة بين الأبيض والأسود ، وحقق التعاطف والتعاون بين الغنى والفقير ، وبنى العقيدة على أساس الحرية والاختيار ، وحض على عمارة الكون واستثمار خيراته ، وهيأ للنفس الإنسانية مجال الرقى الروحى والخلقى ، كالنظام العالمى الذى أسسه محمد ، فاستظل بلوائه الملايين من مختلف الاجناس والألوان .

هذه معان تتزاحم على خواطرنا ، حين نذكر شخصية محمد وحياته — نبيا ورسولا ، ومصلحا ومحررا ، وقائدا ومشرعا وهى معان ملهمة : توحى إليك بالشعر الرفيع إن كنت شاعرا ، وبالبحث والتحقيق إن كنت كاتبا أو مؤرخا ، وبالدرس والتحليل إن كنت نفسانيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا ، وبالأسوة العملية النافعة إن كنت زعيم أمة ، أو قائد ثورة ، أو بانى دعوة من دعوات الاصلاح الإنسانى . وهذه المعانى ممثلة فى الأدب الإسلامى القديم والحديث ، وفى الكتابات الغربية التى تناولت الإسلام وتراثه . فلو أن باحثا أدعى أن شخصية محمد النبى العربى أوسع شخصيات التاريخ الحضارى فى جوانبها ، وأحقها بالعناية والدرس ، ما كان فى ذلك مخالفا الواقع ، ولا متجاوزا حد الإنصاف .

والحقيقة أن هذه الظاهرة لها أسبابها ومبرراتها من التاريخ : فقد جاء محمد برسالته

السماوية ، مصدقا لما بين يديه من الرسالات ، حاضا على الإيمان بأنبيائها ورسلها ، مقررا أنها كلها تنبع من معين واحد ، وتهدف إلى غرض واحد ، داعيا أتباعها إلى كلمة سواء بينه وبينهم أن تكون العبادة لله وحده ، وألا يتخذ الخلق من دونه شريكا له . وهكذا جاءت رسالة محمد خاتما للرسالات ، وبرهانا على صدقها جميعا ودعوة إلى وحدة الدين — وهى وحدة تقوم على الإيمان بالله واحد . وعلى شعور الخلق جميعا بأنهم مرتبطون برابطة واحده مقدسة .

هذا الفهم لحقيقة الدين ظاهرة مهمة فى تاريخ الإسلام ، وفى عظمة مؤسسه ، وهى ظاهرة لها أثرها فى التفكير الدينى عند المسلمين ، وفى احترامهم وحبهم لأنبياء الله ورسله كافة ، وفى موقفهم من حرية العقيدة وعدم الاكراه فى الدين . ولقد يحدث أن يشذ شاذ فيتجنى على محمد ورسالته . أو يحاول أن يشكك فى أصل من أصول تلك الرسالة أو فى حكمة مبدأ من مبادئها ، ولكن المسلم الحق لا يستبيح لنفسه أن يقابل التجنى بمثله أو أن يسىء الأدب فى حق واحد ممن اصطفاهم رب السماء لرسالاته فإن دينه يطالبه أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا . ومن هنا يجد المسلمون أنفسهم دائما فى موقف واضح حين يدعو الدعاة فى العصر الحديث إلى التآلف بين أهل الأديان السماوية ، وإلى وقوفهم معا فى وجه المادية والالحاد المعطلين لمثل الإنسانيه وقيمها الروحية .

وشىء آخر يجب أن يذكر فى معرض الحديث عن محمد الرسول : ذلك هو العنصر التاريخى ، فقد جاء النبيون بالآيات فانصرمت — كما يقول شوقى ، وجاء محمد بآية مستمرة على الدهر ، محفوظة من التحريف والتبديل ، باقية الأثر فى حياة ملايين الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وثقافتهم وتفكيرهم .

هذا — إذن — هو جانب الرسالة السماوية من حياة محمد وعظمته .

وهناك جانب آخر ، وهو جانب محمد الإنسان العربى ، المعروف النشأة ، والتاريخ والسيرة ، والصفات والملامح ، محمد الذى تعبد كما يتعبد كل بشر من ذوى النفوس الصافية المتأملة ، والذى أعد نفسه بالعبادة والتفكير لتلقى رسالة ربه ، والذى جاهد كما يجاهد كل بشر فى سبيل عقيدته ، والذى أوذى فصبر ، لم تضعف له عزيمة ، ولم يثنيه وعد أو وعيد ، ولم يقابل أساءة قومه إلا بطلب الغفران لهم . حتى إذا أذن الله أن يعطى الدين سياجه البشرى من القوه والكفاح ، سل محمد سيفه ، وناضل فى مقدمة الصفوف ، وثبت فى مواقف الحق ومضى إلى غايته ، يبنى أمته ، ويضع لها

قواعد حياتها ، ونظام أخلاقها ومعاملاتها . حتى إذا أتم وضع الاساس ، واختاره الله لجواره ، ترك الأمة العربية موحدة الهدف ، متينة القواعد مشدودة السواعد ، متأهبة لحمل ألوية الدين الحنيف إلى أقصى أرجاء المعمورة .

كانت حياة محمد — إذن — مرحلة لها جلالها فى تاريخ البشرية كلها : فقد تكشفت عن دين واضح الأصول ، وشريعة متماسكة البناء ، وأمة مستعدة لحمل مشعل الحضارة وفلسفة فى الحياة كلما أرنقت الإنسانية وجدت فيها جمالا وإلهاما وهداية .

والجانب الثالث الذى يؤلف فصلا كبيرا فى كتاب عظمة « محمد » ما فجرته حياته وسيرته وتعاليمه وكتابه وحديثه من ينابيع المعرفة والثقافة : فأما حياته فقد بعثت طائفة من أولى العلم على أن يعنو بتتبع سيرته ، ويحققوا أحداثها ، وينظروا بالعين الفاحصة فيما نسج حولها من قصص ، وينبهوا إلى ما فيه من تزيد ، وبذلك مهدوا السبيل لنشأة علم التاريخ عند المسلمين ، وبدأوا تلك السلسلة من الجهود التى ظهرت ثمرتها عند ابن هشام والطبرى ، وابن الاثير وابن خلدون والمقريزى وغيرهم .

وأما كتابه فقد أيقظ عقول العرب وغيرهم من الأجناس التى اعتنقت الإسلام — أو دانت لسلطانه ، وبعث فيهم نهضة فكرية خصبة الجوانب ، وتنبه العرب إلى العناية بلغتهم فضبطوا مقاييسها ، وحددوا نظمها ، وإلى العناية بأدبهم ، فجمعوا متفرقة ، واستنفذوا ثروته من يد الضياع والنسيان ، وإلى النظر فى ذوقهم فبحثوا ظواهره الجمالية والبلاغيه ، وبذلك جمعوا حول القرآن دوائر من المعارف فى التفسير واللغة والأدب والنقد والبلاغة وأسرار التشريع .

وأما حديثه فقد علم هذه الأمة معنى التحقيق والتدقيق ، فكان العالم من علمائها يرحل الأشهر الطوال ، فى طلب نصوص الحديث يتعرف سيرة رواتها ، ويقابل بين ما أثر من صيغها ، وقد نقلوا هذا الميدان الذى أفادوه فى دراسة الحديث إلى ميدان آخر من ميادين المعرفة هو الأدب واللغة ، فنشأ فيه علم كبير هو علم الرواية ، وتخصص فيه علماء مشهورون كما تخصص البخارى ومسلم وغيرهما فى رواية الحديث .

وثمت جانب رابع من حياة محمد وهو أدبه مع أهله وسيرته فى صحابته ، وتعهده لاتباعه ، وطريقته فى تربية النفوس ومعالجة أدوائها ، وحبه لربه ، وخشيته منه ، وموقفه من الحياة ، وما تجلبه المقادير من ثكل ولد أو فقد عزيز ، وما إلى ذلك مما سجلته كتب السيرة فى استقصاء وتفصيل .

هذه الجوانب من حياة النبى العربى مصورة فى الأدب الإسلامى تصويرا يختلف حسب اختلاف الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية التى مرت . ويبدو هذا الاختلاف فى شكل طريف إذا وضعنا — مثلا — بردة البوصيرى وما نسج على نهجها ، إلى جانب مطولات الرسائل والقصائد التى كان الأندلسيون يدبجونها فى ذكر الرسول ومناقبه ، ويلقونها فى المناسبات العامة التى كانت تقام لأحياء المولد أو يرفعونها إلى مقام الرسول ، يصفون فيها أحوال زمانهم ، أو يشكون عدوان الأعداء على بلاد الإسلام ، أو يحنون إلى منازل الوحى ومعاهد الرحمات فى مكة والمدينة . ويتضح الفرق أكثر إذا وضعنا كل أولئك إلى جوار قصائد شوقى فى نهج البردة ، وذكرى المولد وغيرهما ، وإلى جوار المؤلفات التى أخرجها كتابنا المحدثون عن سيرة الرسول وعبقريته . ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنك واجد فى كل هذه الثروة من الادب — رغم اختلاف التصوير ومنزعه — طابعا عاما مشتركا يقوم على الحب الخالص للرسول والاجلال لشخصه والإيمان بصدق رسالته وجمال شريعته .

فالنغمة التى تسمعها من ناظم الموشحة الأندلسية فى القرن السابع الهجرى إذ يقول مناجيا الرسول مصورا مكانته فى نظام الوجود:

يا مصطفى والخلق رهن العدم والكون لم يفتق كمام الوجود
مزية أعطيتها فى القدم بها على كل نبى تسود
ناديت — لو يسمح لى بالجواب شهر ربيع — يا ربيع القلوب
مولدك المرقوم لما نجم أنجز للأمة وعد السعود
أطلعت للهدى بغير احتجاب شمساً ولكن ما لها من غروب !

هذه النغمة تسمع شبيهتها من شاعر العروبة والإسلام فى العصر الحديث إذ يهتف — ولكن على لحن آخر — مبرزا أسرار الشريعة السمحة التى جاء بها محمد :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهو حقيقة نادى بها سقراط والقدماء
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء